الفصل الثانى

حقيقة الجاهلية وحقيقة الإيمان

حقيقة الجاهليه[١]

الاحتكام إلى علماء اللغة فى مادة (ج هـ ل) ومشتقاتها يثبت ما نذهب إليه إن الجاهلية مضمون فكرى وليست إطاراً زمنياً كما ذهب كثير من الباحثين فى الأدب وتاريخه والتاريخ العام حيث تصوروا المقابل للجاهلية هو الإسلام. والحقيقه إن المقابل لها هو الإيمان بدلالة قوله تعالى: (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم)[٢]. فهم يدعون أنهم تركوا الجاهلية بمظاهرها من الشرك والزنا والثأر والظلم وغير ذلك إلى الإيمان فينبههم سبحانه وتعالى إلى أنهم دخلوا الإسلام ولما يتحقق لهم الفهم الصحيح لتعاليمه بدليل سلوكهم المنافى للإسلام فى المدينة فقد أغلوا الأسعار ونشروا القاذورات....[٣]

الأصل فى الجهل خلو النفس من العلم، والجهل نقيض العلم، فجهل فلان الأمر: لم يعلمه، وأرض مجهل: لايهتدى فيها. قال ابن منظور: وأنشدنا:

قلت لصحراء خلاء مجهل تغولى ما شئت أن تتغولى

وفلاة مجهل: لاعَلَم بها. خلاف مَعْلم.. قال الراغب: المَجْهَلُ: الأَمْرُ، والأرضُ، والخَصْلَةُ التى تحمل الإنسان على الاعتقاد بالشىء خلاف ما هو عليه. ومن هذا المعنى قوله تعالى (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف)[٤]أى لا يعرف حالهم. والتجهيل: أن تنسب فلانا إلى الجهل. والجَهَالَةُ: أن تفعل فعلا بغير العلم. ورجل جَاهِلٌ والجمع جُهْلٌ وجُهَّالٌ وجُهَلاءُ، عن سيبويه.

تفرعت عن هذا الأصل عدة معان مجازية نستعرضها ونحلل دلالاتها: **الادعاء**، من قولك: (تجاهَلَنى)، تريد أرى من نفسه الجهل، وليس به. **سوء التقدير**، كما فى الحديث (إن من العلم جهلا) أى أن يتعلم ما لايحتاج إليه ويدع ما يحتاج إليه فى دينه من علوم القرآن والسنة وعلوم الزراعة والصناعة والطب... **الغليان**، من قولهم (جَهِلَت القِدْرُ) اشتد غَلَيانُها، نقيض تحَلَّمَت.

العُقْم، من قولهم ناقه مَجْهُولة: لم تُحْلَب قط، وقيل لم تحمل. وأرض مَجْهُولَةٌ: لا أعلام بها.

وتكثر اشتقاقات مادة (جَهِل) الدالة على الغضب والسَّفَه، مثل: **المَجْهَلَةُ**: مايحْمِلُك على الجهل، ومنه الحديث (الولد مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ.)

والمجاهِلُ: ما لايُرضَى عنه من خُلُقٍ كالكِبْرِ ونحوه.

ومنه قول مُضَرِّس بن رِبْعِيّ:

إنَّا لَنَصْفَحُ عَنْ مَجَاهِلِ قومِنَا ونُقِيمُ سَالِفَةَ العدُوِّ الأَصْيَدِ

وكل ما استخفك فقد استجهلك، من قولهم (استجهلَت الرِّيحُ الغُصْنَ): حركته، ومنه قوله النابغه.

دعاكَ الهَوَى واستَجْهَلَتْكَ المنازِلُ وكيف تَصَابِى المَرْءِ والشَّيْبُ شَامِلُ

أراد استَخَفَّتْكَ، ومن حديث ابن عباس أنه قال: (من استجهل مؤمنا فعليه إثمُه) قال ابن المبارك: يريد من قوله (استجهل مؤمنا) أى حمله على شىء ليس من خلقه فيغضبه فإنما إثمه على من أحوجه إلى ذلك.

وإلى هذا المجاز يضاف قولهم (رأيت منهما مجاملة، ثم انقلبت مجاهلة) فالجهل هنا ليس نقيضاً للعلم وإنما هو نقيض للحلم.

ومنه قول عمرو بن كلثوم :

ألا لايجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومنه المثل: (كفى بالشك جهلا)

والمثل: (الجاهل إما مُفْرِطٌ أو مُفَرِّطٌ).

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (واستجهلته الحَمِية) أى حملته الأنفه والغضب على الجهل. والجاهلية: (زمن الفترة ولا إسلام). يعنى ابن منظور أنها الفترة التى خلت من الرسل بين عيسى بن مريم ومحمد بن عبد الله عليهما السلام، وقدرها المفسرون بخمسمائة وخمسين عاماً. ونص عبارته مفيد أنه أخرج منها المؤمنين فى زمن الفترة، وهم أصحاب الحنيفيه المسلمة دين إبراهيم واسماعيل، والمؤمنين برسول الله موسى بن عمران وكتابه التوراة، وبرسول الله عيسى بن مريم وكتابه الإنجيل عليهم الصلاة والسلام.

قال ابن منظور : وقالوا : الجاهلية الجهلاء فبالغوا.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم (إنك امرؤ فيك جاهلية) هى الحال التى كانت عليها العرب -غير الهداة- قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع الدين والظلم والمفاخرة بالأنساب، والكبر والتجبر، وغير ذلك.

إذا ذهبت وأنت بصدد تحليل دلالات هذه المشتقات لمادة (ج هـ ل) إلى أننا أمام أصلين لغويين أولهما الجهل نقيض العلم، وثانيهما الجهل نقيض الحلم فقد أضفت للمادة أصلا لغوياً ودخلت فى خصومة مع علماء اللغة الذين أجمعوا على أن حقيقة المعنى أن الجهل نقيض العلم، وما عداه فمجازات. وإذا وافقتهم وقلت إن المشتقات المفيدة أن الجهل نقيض الحلم راجعه إلى مجاز أجمعت الأمة العربية على اعتماده فصار حقيقة لغوية صدرت عنها مجازات كثيرة فأنت تقر واقعاً يلزمك لتفسيره أن تقول إن الأمة العربية التى يجمعها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله أجمعت على ربط العلم بالتوحيد وما يستتبعه من الحكمة والأخلاق الصالحة والسلوك المتحضر، وستجد الشواهد والأمثال تنصرك دون تأويل أو تبرير.

ومن طريف ما أثبته بهذا الصدد حوار دار بينى وبين شيخ من قبيلة ذى محمد فى صنعاء، وكنا بصدد الحديث عن شخص شهدت له بالعلم والخلق، فاعترض أن عطفت الخلق على العلم.

وقال ولماذا تعطف وهما شىء واحد والعطف يقتضى المغايرة؟ أقررته واعتذرت مبررا بالواقع الذى نراه من حولنا من انفصال العلم عن الخلق عند كثير ممن نعرفهم.

إن اعتراض محدثى يجسد وجدان الأمه التى اجتمعت كلمتها على العروبة والإيمان فترى أن الأصل فى العالم الخلق الحميد، وأنه قدوه لغيره، فإذا خالف سلوكُه دينَه فقد انتفى عنه العلم. وإذا ثبتت عن ذى العلم السفاهة فى تصرفاته حكم القضاء بالحجر عليه، فيكون سوء خلقه

مضيعاً علمه وحريته ومكانته، ولهذا قرنوا الجهل بالذم فى كثير من المجازات، وقرنوا العلم بالدين.

ألا ترى معى أن الجاهلية تقابل الإيمان، وأنها مضمون فكرى وليست إطارا زمنيا، وأن الجاهلية متصادمة مع العلم، متصادمة مع الخلق القويم، مقرونة بالذم، وأن الفترة السابقة على الإسلام لم تخل للجاهلية وإنما غلب عليها الفكر الجاهلى.. وإلى هذه الحقائق عن الجاهلية ذهب الراغب فى المفردات، قال: «الجهل على ثلاثة أضرب: الأول: وهو خلو النفس من العلم، هذا هو الأصل، وقد جعل ذلك بعض المتكلمين معنى مقتضيا للأفعال الجارية على غير نظام. والثانى: اعتقاد الشىء بخلاف ما هو عليه. والثالث فعل الشىء بخلاف ما حقه أن يفعل. سواء اعتقد فيه اعتقادا صحيحا أو فاسدا، كمن يترك الصلاة متعمدا. وعلى ذلك قوله تعالى:[٥] (قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين)[٦]».

يتبادر إلى الذهن سؤال: ما صلة هذه الحقائق بالبلاغة وجوابنا: ألا ترى معى أن البلاغة من بلوغ الغاية، وهى الإقناع بقضية ببيان مؤثر؟ فإذا أراد إنسان أن يقنع بغير الحق والخير والجمال فهو صاحب سفسطه وليس صاحب بلاغة. البلاغة درجة التفرد والنبوغ وهى درجة أعلى من الصواب فليس كل مصيب فى كلامه بليغاً. والصواب ليس قاصراً على سلامة التعبير، فالبلاغة تنظر فى موافقة المقال للمقام وهذا المبدأ تدخل تحته أمور لغوية كثيره مثل براعة الاستهلال، وحسن الاستدلال، وجودة التمثيل، وصحة الاقتباس، وحسن الانتقال، وجودة القطع، والإيجاز فى مواطنه التى يصلح لها، والإطناب إذا دعت الضرورة إليه

والتصريح فى مواطنه، والكناية حين تدعو الحاجة إليها. فمبدأ الإصابة فى البلاغة مبدأ مركب لايقتصر على الصواب اللغوى. وأهم من هذا كله أن يوافق الفعل القول لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالاتفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون)[٧] فاختلاف القول مع لفعل سمة جاهلية تنافى الإيمان. وكيف تظن أن من يدعى الكرم بقوله وثبت من فعله عكس ذلك يمكن أن يمدح؟! وكذلك من يدعى العدل والعلم والتقوى؟ إن صاحب هذه الدعاوى يجلب على نفسه التندر والسخرية وكل فنون الهجاء. إن البلاغيين يعتمدون الفعل إذا اختلف مع القول، ويرون أن الفعل إذا لم يصحبه قول هو قول مؤكد، وشاهدهم:

جاءَ شَقِيقٌ عارِضاً رُمْحَهُ إنَّ بَنِى عَمِّكَ فيهم رِماحُ

فشقيق لم ينكر بالقول رماح بنى عمه، ولكنه نُزِّلَ بِفِعْلِه منزِلَةَ المُنْكِرِ فأُكِّدَ له الخبر.

تكررت مقولة (الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس فى القرآن الكريم لافى الأدب الجاهلى) فى كتاب (فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين) وعند كثير من المستشرقين، منهم مرجوليوت[٨]

ونقرر إن هذه المقولة صائبة، ولو طبقها الدكتور طه حسين فى كتابه لتغير شكل الكتاب ومضمونه واتجاهه ونتائجه، ولَكَسَبَ درسُ أدبنا الكثير من الحقائق، ولأُعْفِيَ من خوض معارك جدلية ليدفع عن نفسه ادعاءات باطلة عديدة. فالتقصير فى تحديد دلالة الجاهلية جعل الباحثين يتوهمون أن الفترة السابقة على الإسلام خلت من أدب إيمانى،

واقتصرت على أدب الشرك والمجون والظلم. وعندهم شعر السموأل بن عادياء وغيره من اليهود، وعندهم ديوان شعراء النصرانيه الذى جمعه الأب لويس شيخو، وعندهم شعر تماضر بنت الشريد فى الفترة السابقة على البعثة المحمدية. بل إن تقصيرهم فى تحديد دلالة الجاهلية جعلهم يضيفون خطأ وظلما إلى الإسلام ما ليس منه.

وشاهدنا على هذا الخطأ والظلم أن د.محمد مصطفى هداره رأى أن نشأة المجون مرتبطة بالقرن الثانى[٨] إذ إنه كان فى القرن الأول مسألة فرديه وليست تيارا عاتيا، ويستشهد بابن خذام الأسدى وشعره الماجن فى زوجه -ولم يدرك أن هذا الشعر يتبع مذهب مانى، والمجون واضح عند كثير من شعراء الجاهلية كالأعشى ميمون بن قيس، والنابغة الذبيانى، وسحيم عبد بنى الحسحاس وغيرهم. وتأثير الفرس فى الشعر الجاهلى والحياة الجاهلية واضح من نص الإبشيهى فى المستطرف وسيرد ص٩٧، قال (وكانت الزندقة فى قريش أخذوها عن الجزيرة) وقال (وكانت المجوسية فى تميم). والدكتور هداره لم يستبعد فى كتابه الصلة بين المجون والزندقة. وسؤالنا: لماذا تنسب هذا الأدب الجاهلى النشأة والمضمون إلى الإسلام وتعتبره من الاتجاهات الجديدة فى القرن الثانى؟!!

وإكمالا لمقولة مرجليوت والدكتور طه حسين نقول إن الجاهلية يلتمس تفسيرها أيضاً فى السنة النبوية أثراً وسيرة.

دلالة الجاهلية في القرآن:

١ - قال تعالى: (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله).(١٠)

مناسبة النزول وقعة أحد، حين خالف الرماة أمر الرسول فهزموا، فلما رجعوا إلى المدينة قال ناس من المؤمنين: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فنزلت (ظن الجاهلية) أى ظن الملة الجاهلية. أى لايظن مثل هذا الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله.(١١)

٢ - وقال تعالى: (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)(١٢)

السياق يقتضى مراجعة الآيات (من٤١ إلى٥٠) من سورة المائدة من قوله تعالى (يا أيها الرسول لايحزنك الذين يساعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم. ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه....

بدأت الآيات بتسرية الرسول عليه الصلاة والسلام عن مسارعة المنافقين إلى إظهار الكفر والكيد للإسلام وموالاة المشركين، ثم وعد

الله رسوله بالنصر عليهم، وقرن طائفة المنافقين بناس من اليهود قابلون لما يفتريه الأحبار ولما يفتعلونه من الكذب على الله وتحريف كتابه، وقابلون لليهود الذين لم يصلوا مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام وتجافوا عنه.. أما السماعون فهم يهود بنى قريظة، وأما الآخرون الذين لم يصلوا مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم فهم يهود خيبر.

ومناسبة الآيات أن شريفا من يهود خيبر زنى بشريفه، وهما محصنان، وحدهما فى التوراة الرجم، فكرهوا رجمهما لشرفهما، فبعثوا رهطا منهم إلى بنى قريظة ليسألوا رسول الله عن ذلك وقالوا: إن أمركم محمد بالجلد فاقبلوا، وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا: وأرسلوا الزانيين معهم. فأمرهم بالرجم فأبوا أن يأخذوا به. فقال له جبريل: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا، وهو أعلمهم بأحكام التوراة، فأقر الرجم، وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالزانيين فرجمهما عند باب مسجده.

دلالة الجاهلية فى هذا السياق هى جبهة الشرك المناوئة للدعوة وتحتوى على اليهود الخارجين على شريعة موسى عليه السلام ومن استقطبتهم من منافقى المسلمين، وهدف أصحاب هذه الجاهلية فتنة المؤمنين حتى يرتدوا إلى الكفر وهم يكيدون للمؤمنين ويوالون

المشركين، ومن مظاهر الكيد النفاق. والكيد للإسلام تعبير عام أريد به صور الجاهلية المختلفه، أولها: الكذب على الله بتحريف الكلم عن مواضعه فى رسالات السماء. وثانيها: ابتغاء فتنة الناس عن دينهم باستخدام صور عديدة من الكذب والبهت والإفك. وثالثها: عدم احترام العهود والمواثيق مع المؤمنين، والخداع لون آخر من الكذب. ورابعها: أنهم يشترون بآيات الله ثمنا قليلا بالاحتيال على تغيير أحكام الله طمعاً فى الرشا وابتغاء للجاه. وهم لذلك أصحاب الكيل الحرام والتطفيف فى الميزان وآكلو الربا. ويجمع هذه الأمور أنها ألوان من الظلم وصور من مخالفة أوامر الله باقتراف المحرمات وأولها الزنا فهو سمة جاهلية اتفقت شرائع السماء على عدها كبيرة يحد مقترفها بالرجم إذا كان محصنا وبالجلد إذا كان غير محصن. وعلى هذا الأمر دار الحديث فى مناسبة الآيات.

وكان أصحاب الفجور من شعراء ما قبل الإسلام يفخرون بالزنا، قال الأعشى فى استهلال قصيدته فى مدح رهط عبد المدان بن الديان سادة نجران:

ألـم تنه نفسك عمـا بها ... بلى عادها بعض أطرابهـا
لجارتنـا إذ رأت لمتى ... تقول لك الويل أنى بهـا
فإن تعهدينى ولى لـمة ... فـإن الحوادث ألوى بهـا
وقبلك ساعيت فى ربرب ... إذا نـام سامر رقـابهـا

... والمساعاة هى الفجور، وقد أشادت الخنساء بأخيها صخر أنه عفيف تشهد بذلك جاراته، قالت:

لم تره جارة يمشى بساحتها لريبة حين يخلى بيته الجار

وانظر إلى قوله عامر بن الطفيل لعلقمة بن علاثه فى المنافرة بينهما على رياسة القبيلة: «لأنا أحب إلى نسائك أن أصبح فيهن»(١٢)مما يعنى أن الزنا عامة، وزنا الأب بامرأة ابنه، وزنا الرجل بزوجة أخيه، وتبادل النساء بين الأصدقاء كان سمة جاهلية يفخر بها صاحبها عند طائفة من العرب هم غير المؤمنين، فى الفترة السابقة على الإسلام.

مما يؤكد أن الديانة الجاهلية ارتبط فيها الزنا بالشرك أى بمعاداة الرسول عليه الصلاة والسلام ورسالته قول ابن هشام فى سياق حديثه عن فتح مكة: "وحدثنى من أثق به من أهل الرواية فى إسناد له، عن ابن شهاب الزهرى، عن عبيد الله، عن ابن عباس قال... أن فضالة بن عمير ابن الملوح الليثى أراد قتل النبى صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضالة؟ قال: نعم، فضالة يارسول الله، قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لاشىء، كنت أذكر الله. قال: فضحك النبى صلى الله عليه وسلم، ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحب إلى منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلى، فمررت بامرأة كنت أتحدث(١٤)إليها فقالت: هلم إلى الحديث، فقال: لا، وانبعث فضاله يقول:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ، يأبى عليك الله والاسلام
لو مارأيت محمدا وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام[١٥]
لرأيت دين الله أضحى بينا والشرك يغشى وجهه الإظلام

وقد أورد ابن الكلبى فى كتابه الأصنام الأبيات برواية أخرى، قال:

«فلما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة، دخل المسجد، والأصنام منصوبة حول الكعبة. فجعل يطعن بسيه قوسه فى عيونها ووجوهها، ويقول (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) ثم أمر بها فكفئت على وجوهها، ثم أخرجت من المسجد فحرقت.

فقال فى ذلك راشد بن عبد الله السلمى: .... الأبيات[١٦]

ونحن لا نرى تعارضاً بين الروايتين؛ فابن هشام يقول (وانبعث فضالة يقول) وهى غير (أنشأ يقول) معنى هذا أن فضالة يتمثل فى هذا الموقف بشعر يحفظه. أما هشام بن محمد فتقديمه للأبيات يدل صراحة على أن صاحبها هو راشد بن عبد الله السلمى.

إن المعاجم اللغوية تفرق بين الأوثان، وهى الحجارة التى تعبد من دون الله، والأصنام وهى ما يعبد من دون الله إطلاقاً، فقوله تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم.)[١٧]يعنى من يقدسون عقولهم دون حاجة إلى الاحتكام لشرائع السماء، والأصنام: الطاغوت، مثل كسرى، وقيصر، وعمرو بن لحى، وكليب وائل، وفرعون، والأصنام:

النحل الفاسدة التى تشرع للناس حياتهم. والأصنام: الحيوان المقدس، والمكان المقدس، من دون الله. فالأوثان والأصنام من علامات الجاهلية.

٣- قال تعالى: (..وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) (١٨) المعنى ولا تحدثن بالتبرج جاهلية فى الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر. ويعضده ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى الدرداء (إن فيك جاهلية) قال: جاهلية كفر أم إسلام؟ قال بل جاهلية كفر. ويفسر الزمخشرى الفرق بين الجاهليتين بقوله: ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام. والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور فى الإسلام.(١٩)

٤- قال تعالى: (إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) (٢٠) سياق الآية صلح الحديبية. بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشى وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص على أن يعرضوا على النبى صلى الله عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلى له قريش مكه من العام القابل ثلاثة أيام ففعل، وكتبوا بينهم كتابا أبوا أن يبدءوه ببسم الله الرحمن الرحيم وبأن محمدا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام لعلى بن أبى طالب: اكتب ما يريدون فنزلت. فالحمية المقصودة أنفة الذين كفروا. والسكينة: وقار الرسول عليه الصلاة والسلام.(٢١)

نخرج من تحليل دلالة الجاهلية فى القرآن الكريم أن المقابل المذكور لها أو الذى يدل عليه السياق هو الإيمان بالأديان السماوية عامة وبدين الإسلام خاصة.

وأن الجاهلية دين الكافرين، وهى نوعان: ١- جاهلية ما قبل البعثة المحمدية. ٢- وجاهلية مابعد الإسلام. الأولى بسيطة، والثانية مركبة.

جاهلية ماقبل البعثة المحمدية:

كانت شبه الجزيرة متحفاً للعقائد والنحل، فهى لم تخل للشرك كما يتصور كثير من الدارسين، وشعر الخنساء الذى نختاره لك يثبت الإيمان بألفاظ تدل عليه: (تأتم، والهداة، والإرشاد، والفاحشة، والخير، والخيرات، والحمد، والمجد.) وستجد أن القسم بالله يتكرر عند علقمه وعامر فى منافرتهما، وستجد أن الخنساء تُعَرِّضُ بأصحاب الجاهلية، وستجد أن علقمة وعامر يتفقان على المنافرة على أيهما أسبق إلى الخيرات. فما تفسير ذلك؟

تفسيره ما ننقله لك عن شهاب الدين محمد بن أحمد الإبشيهى فى كتابه (المستطرف فى كل فن مستظرف) بعنوان (ذكر أديان العرب فى الجاهلية) قال: «كانت النصرانية فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة.

وكانت اليهودية فى نمير، وبنى كنانة، وبنى الحارث، وكندة.

وكانت المجوسية فى بنى تميم؛ منهم زراره بن عدى، وابنه على، وكان تزوج ابنته ثم ندم، ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسيا.(٢٢)

وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الجزيرة.

وكانت بنو حنيفة اتخذوا فى الجاهلية صنما من حيس فعبدوه دهرا طويلا ثم أدركتم مجاعة فأكلوه.

وقيل إن أول من غير الحنيفية عمرو بن لُحَى أبو خزاعة، وهو أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام فأعجبه ذلك. فقال ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدونها. قالوا هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال أعطونى منها صنما أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه فأعطوه صنما يقال له هُبَل فقدم به مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

وكانت قريش قد اتخذت صنما على بئر فى جوف الكعبة، يقال له هبل. وأيضاً اتخذوا إسافا ونائلة فى موضع زمزم فينحرون عندها ويطعمون. وكانت لقريش وبنى كنانة، العزى وكان حجابها بنى شيبة.

وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان حجابها بنى مغيث من ثقيف.

وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم.

وقال الواقدى : كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر». (٢٢)

معنى هذا أن الحنيفة دين إبراهيم وإسماعيل كانت بينهم، وكذلك اليهودية دين موسى بن عمران، والمسيحية دين عيسى بن مريم عليهم الصلاة والسلام. وقد ذكرنا لك أن من أنبياء العرب: شعيبا وصالحا وهودا عليهم السلام. فهل بقيت هذه الأديان واضحة عند العرب قاطبة؟ هذا مستحيل، قد تكون اليهودية واضحة عند أصحابها، وتكون المسيحية واضحة عند أصحابها. أما دعوة ابراهيم فقد حدثنا الكلبى فى كتابه الأصنام أن قبيلة عك قد خلطت دعوة ابراهيم بالشرك. وقد رأيت أن عمرو بن لحى جلب صنماً من الشام وأمر الناس بعبادته فقلدته قبائل عدنان وقبائل قحطان. معنى هذا أن الإيمان التبس بالشرك.

ونظرة إلى عقيدة مشركى قريش الذين قادوا مناهضة الدعوة المحمدية فسنجد أنهم جمعوا بين الوثنية والمانوية أى المجوسية الفارسية محرفة وهذا ما تفيده عبارة الإبشيهى (وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الجزيرة) وما يفيده نص ابن هشام عن فضاله، ونص الكلبى عن راشد بن عبد الله السلمى.

أما اليهودية الصحيحة فقد وجدناها واضحة فى شعر السموأل بن عادياء اليهودى، ولكننا نجد اليهود فى جاهلية ما بعد الإسلام يقومون بدور مختلف كلية. وسنذكر لك دور شاس بن قيس فى الوقيعه بين الأوس والخزرج.

جاهلية ماقبل الإسلام كانت بسيطة اختيارية ليس فيها عدوان من الكافر على المؤمن. بل العكس صحيح لقد كانت الخنساء قبل البعثة عازفة عن الجاهلية ميالة إلى الإيمان رفضت دريد بن الصمة لأنه كان غارقا فى الجاهلية حتى أذنيه، وصدق ظنها فيه فقد مات على الشرك بالله. وكانت فى رثائها تشيد بالقيم الايمانية وتُعَرِّضُ بالقيم الجاهلية. قالت فى رثاء صخر:

وإنَّ صَخْرًا لَوَالِينَا وَسَيِّدُنَا ... وإنَّ صَخْرًا إذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ
وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فى رَأْسِهِ نَارُ
لَمْ تَرَهُ جَارَةٌ يَمْشِى بِسَاحَتِهَا ... لِرِيْبَةٍ حِينَ يُخْلِى بيتَهُ الجَارُ

وسترى فى منافرة علقمة وعامر أنهما اتفقا على أن قيم الجاهلية لاتُسَوِّدُ صاحبَها، ونحن نثبت لك أن قيم الإيمان هى المُوَصِّلَةُ للسيادة، فقول الخنساء عن صخر (تأتم الهداة به) دليل على أن السيادة جاءته اختيارا وتقديرا، وفى البيت الأخير نَفَتْ عنه ماشاع عند الجاهليين من عُدْوَانِ الجَارِ عَلَى حُرْمَةِ جَارِهِ.

وهى تؤكد نفس المعانى فى رثائية أخرى:

طَوِيلُ النِّجَادِ رَفِيعُ العِمَا ... دِ سَادَ عَشِيرَتَهُ أَمْرَدَا
إذا القَوْمُ مَدُّوا بأيْدِيهِمُ ... إلَى المَجْدِ مَدَّ إلَيْهِ يَدَا
فَنَالَ الذى فَوْقَ أيدِيهِمُ ... مِنَ المَجْدِ ثم مَضَى مُصْعِدَا
يُكَلِّفُهُ القَوْمُ مَاعَالَهُم ... وإنْ كَانَ أَصْغَرَهُم مَوْلِدَا
تَرَى الحَمْدَ يَهْوِى إلَى بَيْتِهِ ... يَرَى أفْضَلَ الكَسْبِ أنْ يُحْمَدَا

ألا ترى معى مافى هذا الشعر من توفر شروط الفصاحة والبلاغة التى اجتهد البلاغيون فى توصيفها؟ ألا تلاحظ معى أن هذه المعانى تصلح لأن تُقَالَ فى رثاء معاصِر لنا نأسى على فراقه ونرثيه أسى على فقده ونفعه قومه؟ ألا ترى معى أن هذا الشعر إذا تُرجِمَ إلى لغة أخرى فلن يفقد روعته وسيجد من يُعجب به. هذه هى صفات المعانى الإيمانية ليس فى الرثاء فقط وإنما فى كل الأغراض.

ونختار شاهدا آخر من رثاء الخنساء أخاها عمرو بن معاوية، وكان معاوية أخاها لأبيها وأمها، لنؤكد على أن فترة ماقبل الإسلام لم تَخْلُ للشرك والسلوك الجاهلى بل وجدت مؤمنين يترفعون عن مظاهر الجاهلية:

أَرِيقِى مِنْ دُمُوعِكِ واسْتَفِيقِى ... وصَبْرًا إِنْ أَطَقْتِ وَلَنْ تُطِيقِى
وقُولِى إِنَّ خَيْرَ بَنِى سُلَيْمٍ ... وفارِسَهَا بصحـــراءِ العَقِيقِ
فَبَكِّيهِ فَقَدْ أَوْدَى حَمِيدًا ... أمينَ الرَّأْيِ مَحْمُودَ الصَّدِيقِ
فَلاَ واللهِ لاتَسْلاَكَ نَفْسِى ... لِفَاحِشَةٍ أَتَيْتَ وَلاَعُقُوقِ
ولكنِّى رَأَيْتُ الصَّبْرَ خَيْرًا ... مِنَ النَّعْلَيْنِ والرَّأْسِ الحَلِيقِ

لقد أحسنت الخنساء المقابلة بين الجاهلية والإيمان فى هذه المحنة: البكاء مع التصبر، وذكر محاسن المفقود والشهادة له؛ أودى حميدا، أمين الرأى، محمود الصديق، ونفى السوء عنه؛ لم يقترف فاحشة وكان بارا بأهله. والصبر على فراق الميت من سمات الإيمان أما السمات الجاهلية فى هذه المناسبة فهى الجزع المفرط المؤدى بالمرأة إلى ان تحلق شعرها وأن تضرب خديها بنعليها.

أما الرثاء الجاهلى فى الفترة السابقة على الإسلام فنكتفى فيه بهذا الشاهد الذى رواه محمد بن يزيد المبرد وعلق عليه فى كتابه الكامل فى اللغة والأدب قال: وقال أعرابى:

ألالهف الأرامـــل واليـــتامى ولهف الباكـــيات على قصى
لعمرك ماخشيت على قصى متالـــف بين حجر والسلى
ولكـــنى خشيت على قصى جريرة رمحه فى كل حى
فتى الفتـــيان محلـــول ممر وأمار بإرشـــــاد وغـــى

فهذا الشعر من أجفى أشعار العرب ينبىء صاحبه أن تقديره فى المرثى أن تكون منيته قتلا، ويتأسف من موته حتف أنفه، ويقول فى مدحه (وأمار بإرشاد وغى)..(٢٤)

إن جاهلية ماقبل الإسلام لم تكن لها صورة ثابتة ولم يكن يجمعها نسق فكرى سوى مطلق التحرر من قيود الشريعة، وعهد النساء يعطينا صورة واضحة عن مفردات جاهلية ما قبل البعثة المحمدية، قال تعالى ومناسبة النزول فتح مكة:

(ياأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئا ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهن ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولايعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم.)(٢٥)

وقد أثبتت هذه العلامة كتب كثيرة للأدب أوجزها ماقاله ابن ضباطبا العلوى فى سياق حديثه عن سنن العرب المستعملة بينها، قال «...وكحكمهم إذا أحب الرجل منهم امرأة وأحبته، فلم يشق برقعها، ولم تشق هى رداءه، فإن حبهما يفسد، وإذا فعـــلاه دام أمرهما. وفى ذلك يقول عبد بنى الحسحاس سحيم:

فكم قد شققنا من رداء محبر ومن برقع عن طفلة غير عانس
إذا شق برد شق بالبرد مثله دواليك حتى كلنا غير لابس(٢٦)

فمفردات جاهلية ماقبل الإسلام أساسها الظلم، والشرك ظلم عظيم، ومنه قتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق. ومن تجرأ على هذه الكبائر يقدر على الزنا والمباهاة بالقوة واغتصاب حقوق الناس ونقض العهد والكذب فبعض هذه المعانى يفضى إلى بعض.

لكن الجاهلى قبل البعثة كانت فيه من معانى الإيمان النجدة والكرم وإباء الضيم وصلة الرحم وغير ذلك فهل نفسر ذلك بأنه جمع بين لإيمان والجاهلية، هذا مستحيل لأن عد الأخلاق الإيمانية مما يختار أو يترك هو الجاهلية. معنى هذا إن الجاهلية لم يكن لها قبل البعثة المحمدية نسق فكرى، وقد اكتسبت النسق من الإيمان حين اختارت أن تكون لمقابل للشريعة المحمدية.

إن اجتماع كل معانى الجاهلية فى شخص يجعله شخصا مدمرا لمن حوله ولنفسه، فيشبه النار التى لاتخمد إلا إذا أتت على كل أسباب وجودها. والذين اجتمعت فيهم كل معانى الجاهلية نادرون فى التاريخ وهم أيضا منقرضون كالديناصورات؛ منهم كليب وائل الذى أدت سفاهاته إلى حرب البسوس، ومنهم دريد بن الصمة، ومنهم صدام حسين.

وسترى حين نعرض عليك منافرة جاهلية بين علقمة وعامر أن صاحبيها هجرا معانى الجاهلية فليست مجالا للفخر أمام جمهور وقضاة. وأعلنا أنهما يتفاخران حول المسارعة إلى الخيرات.

والخلاصة إن جاهلية ماقبل البعثة ندر أن تكتمل معانيها فى أشخاص.

قال الجاحظ ذاكر خطباء القبائل الحكام فى الجاهلية: «ألاترى أن ضمرة بن ضمرة، وهرم بن قطبة، والأقرع بن حابس، ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع، وكذلك ربيعة بن حنار». (٢٧) كما نص على أن بنى الكواء حازوا هـذه المكانة فكانـوا أصحاب النفورات. (٢٨) وأشار إلى منافرة القعقاع بن معبد التميمى وخالد بن مالك النهشلى إلى ربيعة بن حذار الأسدى.(٢٩)

وشاهدنا على استحالة اكتمال معانى الجاهلية أشهر هذه المنافرات وقد دارت بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثه، وتدور حول أيهما أحق بمشيخة القبيلة، ونعتمد على نصها فى الأغانى.(٣٠) وسترى أنها تثبت معايشة الفكر الإيمانى للفكر الجاهلى، وأن صاحب لواء الجاهلية قد سقط لواؤه من يديه لأسباب ثلاثة؛ لأنه وجد أن أنصاره سيتخلون عنه إن ظل رافعا له، ولأن أمه قد نصحته بتركه، ولأن صاحبه قد اقترح عليه المنافرة حول أيهما أقرب إلى فعل الخيرات فقبل التحدى لأن المنافرة ستنتهى بهزيمة إذا انسحب، وفعل الخيرات هو المضمون الإيمانى أى إنهما أقرا إن الجاهلية تتنافى مع السيادة.

والمنافرة فن من فنون الخطابة العربية ازدهر قبل الإسلام وكان بنو أميه يغرون بين شيوخ القبائل وعلماء الأنساب ليتنافروا فى مجالسهم، فهو فن يقوم على الحوار بين طرفين، وموضوعه الرئيسى الفخر بالأنساب ويتطرق المتنافر إلى الفخر بالبطولة الحربية، والفحولة فى العلاقات النسائية، والكرم والشهامة. فهى مظهر من مظاهر الصراع السياسى القبلى.

والمنافرة -كالمناظرة- تجرى أمام الجمهور، ويتدخل المتحسون لأحد المتنافرين لِيُذَكِّرُوه بوجه من وجوه المفاخرة. وغالباً ما يرحل المتنافران إلى أحياء القبيلة ومع كل منهما مؤيدوه من الشعراء والخطباء والمغنين،فيذبح الذبائح ويقيم احتفالا يستمر عدة أيام، فهى أشبه بالدعاية الانتخابية فى عصرنا.

والمنافرة خطابة قضائية يحتكم فيها المتنافران إلى القضاة وهم الخطباء الشيوخ.

والمنافرة مظهر أدائها السجع الذى يستعمله كل الأطراف: المتنافران والقاضى. وهى لون أدبى يكشف القيم التى تسود المجتمع. وتستطيع أن ترد القيم التى يصدر عنها المتنافر إلى إيمان يربطها أو شرك يحركها. ورواية أبى الفرج لمنافرة عامر وعلقمة جمع فيها بين الإجازة[٢١] والوجادة[٢٢] فروى النص عن خمسة طرق، فالنص الذى يقدمه يصل إلى مرتبة التواتر فهو محل ثقتنا.

«قال أبو الفرج: أول ما هاج النفار بين عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر، وبين علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص. أن علقمة كان قاعدا ذات يوم يبول، فبصر به عامر فقال: لم أر كاليوم عورة رجل أقبح.

فقال علقمة: أما والله ماتثب على جاراتها، ولا تنازل كناتها؛[٢٣] يعرض بعامر.

فقال عامر: وما أنت والقروم[٢٤]! والله لفرس أبى «حنوة» أذكر من أبيك، ولفحل أبى «غيهب» أعظم ذكرا منك فى نجد.

فقال علقمة: لأنا خير منك ليلا ونهارا.

فقال عامر: لأنا أحب إلى نسائك أن أصبح فيهن منك.

فقال علقمة: على ماذا تنافرنى ياعامر؟

فقال عامر: أنافرك على أنى أنحر منك للقاح[٢٥]، وخير منك فى الصباح[٢٦]، وأطعم منك فى السنة الشياح[٢٧].

قال علقمة: قد علمت أن لك عقبا فى العشيرة وقد أطعمت طيباً إذ سارت، ولكنى أنافرك أنى خير منك، وأولى بالخيرات منك، وقد أكثرنا المراجعة منذ اليوم.

قال: فخرجت أم عامر، وكانت تسمع كلامهما، فقالت: ياعامر، نافره أيكما أولى بالخيرات. قال عامر فى مراجعته: والله لأنا أركب منك فى الحماة، وأقتل منك للكماة، وخير منك للمولى والمولاة.

فقال له علقمة والله إنى أعز منك. إنى لَبَرٌّ وإنك لفاجِر، وإنى لَوَفِيٌّ وإنك لَغادِر. ففيم تفاخرنى يا عامر؟ فقال عامر: والله إنى لأنزل منك للقفرة، وأنحر منك للبَكْرَةِ، وأطعم منك للهَبْرَةِ، وأطعن منك للثغرة.

فقال علقمة: والله إنك لكليل البصر، نكد النظر، وثاب على جاراتك بالسحر.

فقال بنوخالد بن جعفر...: لن تطيق عامرا، ولكن قل له: أناغرك بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات، وخذ عليه بالكِبْرِ. فقال له علقمه هذا القول.

واتفقا على مائة من الإبل إلى مائة أخرى يعطاها الحكم أيهما نفر عليه صاحبه أخرجها ووضعوا بها رهنا من أبنائهم، على يد رجل من بنى الوحيد فسمى الضمين، وهو الكفيل.

وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد، وخرج عامر فيمن معه من بنى مالك إلى الحكام القضاة وثار مع عامر لبيد بن ربيعة والأعشى، ومع علقمة الحطيئة وفتيان من بنى الأحوص يرتجزون.»

الشاهد فيما سقناه من أقوال المتنافرين أن عامر بن الطفيل كان صاحب الجاهلية، وأن علقمة بن علاثة كان صاحب الهداية وأن عامرا نبهته أمه إلى أنَّ رَفْعَهُ لواء الجاهلية سيُفْقِدُه رضا الحكام والجمهور، فقالت له: نافره على أيكما أولى بالخيرات، وهذا ما أكد عليه علقمة مرارا. إن أقوال عامر تعطينا مفردات الجاهلية من السفه، والعدوان، واقتناص اللذات مع

الجارة وامرأة الأخ وزوجة الابن فلا حرمة ولاعهد. واذا أطعم الناس فللفخر والمباهاة وليس للعطف على المحرومين. لقد أكثر علقمة من ذكر حبه للخيرات ونبهت أم عامر ولدها أن ينافر علقمة فى هذا المجال، وهذا ماحدث بعد أن رحلا إلى الحكام.

والخلاصة إنهما اتفقا على أن الفخر محصور فى المعانى الإيمانية دون الجاهلية.

لقد رحلا إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية ليحكم فى المنافرة فلم يقل بينهما شيئا، وكره لحالهما وحال عشيرتهما أن تثور الفتنة، فقال: أنتما كركبتى البعير الأدرم، تقعان بالأرض قالا: فأينا اليمين؟ قال كلاكما اليمين.

وأتيا عينيه بن حصن بن حذيفة، فأبى أن يقول بينهما شيئـــا، وردهما إلى حرملة بن الأشعر المرى، فردهما إلى هرم بن قطبه بن سنان الفزارى. ولم يفضل هرم واحدا منهما على صاحبه، وكره أن يفعل وهما ابن عم فيجلب بذلك عداوة ويوقع بين الحيين شرا.

معنى هذا أن الخطباء الحكام قد أجمعوا على أن الحفاظ على صلة الرحم وتجنيب القبيلة الحرب وويلاتها هو الحكم الواجب إقراره بين المتنافرين. وقد بذل القضاة لذلك الحيلة والمال وهذا سلوك إيمانى متسق مع اتجاه ورقة بن نوفل مَثَلُ الحكام الخطباء الأعلى.

والخلاصة إن الجاهلية تسقط ويتخلى عنها أصحابها حين تتنافى مع مصالحه فهى ليست عقيدة يدافع عنها.

الإيمان كما عرفه الإمام البخارى (هو قول وفعل ويزيد وينقص) والحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان[٣٨]. والسلف قالوا: هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان. وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط فى كماله. ومن هنا نشأ لهم القول بالزيادة والنقص.

المرجئة قالوا: هو اعتقاد ونطق فقط. والكرامية قالوا: هو نطق فقط. والمعتزلة قالوا: هو العمل والنطق والاعتقاد. والفارق بينهم وبين السلف أنهم جعلوا الأعمال شرطا فى صحته. والسلف جعلوها شرطا فى كماله.

وقد استدل الشافعى وأحمد وغيرهما على أن الأعمال تدخل فى الايمان بهذه الآية: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة)[٣٩] قال الشافعى: ليس عليهم أحج من هذه الآية.[٤٠]

وكما اقترنت الجاهلية بالجهل نقيض العلم ونقيض الحلم اقترن مقابلها الإيمان بالعلم والحلم فكان أول الوحى قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم. علم الانسان مالم يعلم)[٤١]

واقترن الإيمان بالبصيرة وجودة الاستنتاج وصحة القياس، فالسيدة خديجة رضى الله عنها تقول للرسول عليه الصلاة السلام: «أبشر يابن

عم واثبت. فوالذى نفس خديجه بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة. ووالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق». وابن عمها ورقة بن نوفل يقول للرسول عليه الصلاة والسلام: «والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة. ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى، ولتكذبن، ولتؤذين، ولتخرجن، ولتقاتلن. ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه.»(٤٢)

وقال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء)(٤٣) فالعلم وتقوى الله صفتان متلازمتان فى العالم المؤمن. كما تتلازم صفة العلم بالعمل عند المؤمنين فكان الإمام أبو حنيفة النعمان يبيع الخز، وارتبطت الحرف بكثير من العلماء وثبتت فى ألقابهم كالفراء والزجاج والعلاف والغزال.

وكما ربط الأدباء بين أمور دينهم ودنياهم ربط العلماء العلم بغايات خلقية نافعة لمجتمعهم اقتداء بقوله صلى الله وسلم (إن من العلم جهلا) حين نهى العلماء عن الاشتغال بمالا ينفعهم. ويحسن أن نقدم لك خطبة الكتاب الذى أجمع القدماء والمحدثون على أنه أساسى فى علوم البلاغة، قال الجاحظ مستهلا كتابه البيان والتبيين: «اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من السلاطة والهذر،

كما نعوذ بك من العمى والحصر. وقديما ما تعوذوا بالله من شرها، وتضرعوا إلى الله فى السلامة منهما.» ويتلخص الايمان بصورة واضحة فيما روى عن على بن أبى طالب أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال: المعرفة رأس مالى، والعقل أصل دينى، والحب أساسى، والشوق مركبى، وذكر الله أنيسى، والثقة كنزى، والحزن رفيقى، والعلم سلاحى، والصبر ردائى، والرضا غنيمتى، والفقر فخرى، والزهد حرفتى، واليقين قوتى، والصدق شفيعى، والطاعة حسبى، والجهاد خلقى، وقرة عينى الصلاة.»(٤٥)

الخلاصة إن الجاهلية هى ما نهى الله عنه، والإيمان هو ماحث لله ورسوله عليه. والجديد فى جاهلية ما بعد البعثة أنها اتخذت من مفهوم الايمان الواضح المحدد دافعا لتوحيد طوائفها وتحديد أهدافها وهى فتنة المؤمنين عن دينهم، والكيد لمن يتشبث بالايمان، واستثمار الأحقاد بين المؤمنين نكى تضعف شوكتهم. والغطاء لهذه المهام هو النفاق.

والجاهلية بعد البعثة قادها مشركو العرب الذين قال الله فيهم (وتنذر به قوما لدا)(٤٦)

وقد اتخذوا الطعن فى الرسول مدخلا للطعن فى الرسالة، واجتمعت مع مشركى قريش جماعات الخارجين على اليهودية والمتأثرين بالديانات الفارسية القديمة المركبة. والأمر فى اتحاد هذه الجماعات لم يقتصر على معاداة الرسول والرسالة وإنما زاده ضراوة وحدة والحاحا هجرة الرسول وأصحابه إلى المدينة وقيام الدولة بدستورها ورئيسها ومقرها وجيشها ومعاركها التى تضيف كل يوم نصرا جديدا.

لقد كفانا الله شر الحيرة فى أمر الجاهلية بعد الدعوة المحمدية حين قابل بين ولاء المؤمنين وولاء المنافقين، أى قابل بين الجاهلية فى صورها المختلفة الظاهرة والمستترة وبين الإيمان، فالنفاق أشد خطرا من الكفر، قال تعالى: (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون).(٤٧)

لقد أدرك الجاحظ من خلال تفنيده مزاعم المشككين فى رسالة محمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام أن من يرد عليهم مزاعمهم ويدحض افتراءاتهم جماعات كثيرة لا يحصرها نسب ولا وطن ولا مذهب وإنما يجمعها العداء للإيمان، فقال: «وكل ملحد فى الأرض مبغض للرسول طاعن عليه عائب له، يرى أن يصدق عليه كل كذاب يريد ذمه، وأن يكذب كل صادق يريد مدحه.»(٤٨)

وقال جل ثناؤه مصورا ولاء المؤمنين: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم)(٤٩)

المقابلة بين النوعين من الولاء توضح أننا أمام معسكرين؛ معسكر تجمع أفراده المعصية ويظهرون خلاف مايبطنون. وسنرى من أفعالهم أنهم لا يكتفون باقتراف المعاصى بل يتعدون ذلك إلى الكيد والفتنة والحرب اذا سنحت الظروف للمؤمنين ويكفى أن ننظر فى حوادث سنة١١هـ لندلل على ما نقول(٥٠) وسنعرض لنماذج عديدة لمبادرة المنافقين بالعدوان على المؤمنين فى حدود ما يسمح به هذا الدرس الأدبى.(٥١)

مـــا الـــــولاء؟

قال الراغب فى المفردات: «الولاء والتوالى أن يحصل شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، والولاية النصرة... ونفى الله تعالى الولاية بين المؤمنين والكافرين فى غير آية، فقال (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء. بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين)[٥٢]

وجعل بين الكافرين والشياطين موالاة فى الدنيا ونفى بينهم الموالاة فى الآخرة، قال الله تعالى فى الموالاة بينهما فى الدنيا (والمنافقون والمنافقات بعضهم أولياء بعض) وقال (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) وقال (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) وقال: (فقاتلوا أولياء الشيطان) فكما جعل بينهم وبين الشيطان موالاة جعل للشيطان عليهم سلطانا، فقال: (إنما سلطانه على الذين يتولونه)».[٥٣]

معنى هذا أن الولاء هو الحب فى نسق يضبطه، وأعراف تؤصله، ومعاملات اجتماعية تعتمده. أما المؤمنون فيجعلونه عاما شاملا أمور دينهم ودنياهم، وأما الجاهليون فيجعلونه خاصا بأمور دنياهم قاصرا على من وافقهم. وهذا تفسير قوله تعالى فى الرابطه الجامعة بين المنافقين (بعضهم من بعض) و(بعضهم أولياء بعض) و(إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) فولاء المؤمنين هو استثمار الحب بين المؤمنين خاصة والناس عامة بما يحقق نفع كل فرد فيهم، وبما يحفظ حدود الله، وبما يعود على المجتمع بالأمن والرخاء والازدهار.

وولاء المنافقين قاصر عليهم، محدود بمصالح دنياهم، متصادم مع قيم الحق والخير والجمال.

وأظهر طوائف النفاق الخوارج، وهم: «جمع خارجة[٥٤] أى طائفة، وهم قوم مبتدعون، سموا بذلك لخروجهم عن الدين وخروجهم على خيار المسلمين... إن الخوارج لم يطلبوا بدم عثمان بل كانوا ينكرون عليه أشياء ويتبرءون منه... وكان يقال لهم القراء لشدة اجتهادهم فى التلاوة والعبادة إلا أنهم كانوا يتأولون القرآن على غير المراد منه، ويستبدون برأيهم ويتنطعون فى الزهد والخشوع وغير ذلك. فلما قتل عثمان قاتلوا مع على واعتقدوا كفر عثمان ومن تابعه واعتقدوا إمامة على وكفر من قاتله من أهل الجمل...

واجتمعوا على أن من لايعتقد معتقدهم يكفر ويباح دمه وماله وأهله، وانتقلوا إلى الفعل فاستعرضوا الناس فقتلوا من اجتاز بهم من المسلمين... وتوسعوا فى معتقدهم الفاسد فأبطلوا رجم المحصن، وقطعوا يد السارق من الإبط، وأوجبوا الصلاة على الحائض فى حال حيضها، وكفروا من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إن كان قادرا، وإن لم يكن قادرا فقد ارتكب كبيرة، وحكم مرتكب الكبيرة عندهم حكم الكافر، وكفوا عن أموال أهل الذمة وعن التعرض لهم مطلقا، وفتكوا فيمن ينسب إلى الاسلام بالقتل والسبى والنهب.»

إن ما كتب عن الخوارج كثير عيبه الإطناب والاسراف فى التفصيلات التى تجعلك لا تدرك ما يربط بين هذه الحركات كلها. ألا ترى معى أن

الحقائق الموجزة التى عنى بها الإمام أحمد بن على بن حجر العسقلانى قادتنا إلى التعرف على أصحاب جاهلية مابعد الإسلام وأهم صفاتها رفع شعار الإسلام ظاهرا، وقتل المسلمين واقعا، فهم أهل ضلالة يكفرون المسلمين ويقتلونهم ويتصرفون فى شريعة الله بالإبطال والزيادة. ألم يحاول الخارجون على شريعة رسول الله موسى بن عمران إبطال حد الزنا على شريفين من اليهود، رجل وأمرأة زنيا؟! ألا يذكرك هذا النص بما نراه اليوم من التطرف باسم الاسلام وإرهاب المسلمين. أتذكر قول فقهائنا (الكفر ملة واحدة).

الاعتماد على اللغة مفيد فيما نذهب إليه من استكشاف أصل الخوارج، فالخروج على شريعة موسى بن عمران عليه السلام تكرر من قارون والسامرى والفريسيين القائمين على شريعة موسى عليه السلام والذين حرفوها فبعث الله رسوله عيسى بن مريم عليه السلام ليصححها. معنى هذا إن الخارجين على شريعة موسى جمعوا من خرجوا على شريعة عيسى ومن خرجوا على شريعة محمد عليهم الصلاة والسلام؛ فالخوارج لفظ عام أريد عمومه، والكفر ملة واحدة كما يقول فقهاؤنا. وصار الخارجون على الأديان جبهة واحدة ضد الايمان الصحيح بأية شريعة سماوية، فالإرهاب صفة جاهلية يمارسها الجاهليون ضد المؤمنين. والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هل نصر بعد هذا التحديد لمعنى الجاهلية على درس أدب الخوارج إنه تجديد فى الأدب فى عصر بنى أمية؟! فنعده أدبا إسلاميا؟!!

درسنا لايبيح لنا أن نشغل أنفسنا بالخارجين على الإسلام بعد هذا التوضيح الذى أتينا به عن الفرق بين الجاهلية والإيمان وعن الفرق بين جاهلية ماقبل البعثة وجاهلية مابعد البعثة وإنما الذى يشغلنا البحث فى

مضمون الأدب وهو وظيفة البلاغة الجوهرية ومن حقنا أن ننفى عن الأدب الإسلامى أنه أدب داعر كما يصوره بعض الباحثين، ومن حقنا أن ننفى عن الأدب الإسلامى أنه أدب الإرهاب كما تذهب من لاتكلف نفسها البحث فى مضمون الجاهلية ومبلغ تصادم أدب الخوارج مع الشريعة الإسلامية. إننا نستخدم شرط البلاغة فى الإصابة من حيث اتساق القول مع الفعل.

البلاغة حكم مؤسس على قيم الحق والخير والجمال لهذه الأمـــة العربية المؤمنة. وإذا سجلنا جهود المعتزلة أو الأشاعرة البلاغية فمن حيث هى إضافة تبلور قيم هذه الأمة ولاتختلف مع الكتاب والسنة والأعراف العربية. وإذا تركنا من أقوال المعتزلة أو الأشاعرة أو غيرهما شيئا فمن حيث اختلافه مع قيم الأمة وأعرافها أو من حيث عدم حاجة الدرس البلاغى إلى تلك الأقوال. دور البلاغى إذن أن يأخذ وأن يدع، وليس دوره أن يسجل كل مايسمعه ثم يملأ الدرس البلاغى ضجيجا حول ماوافق وماخالف. وهذا مانسميه الفكر البلاغى وستجده متحققا عند ابن أبى الأصبع المصرى حين نحدثك عنه. أما ماخالف قيم هذه الأمة وسكت عنه البلاغيون فمثاله كتاب (البرهان فى وجوه البيان) لابن وهب وسنحدثك عنه.

الخلاصة إننا بإزاء أدبين ودرسين للأدب منذ أول نصوص بلغتنا عن الأدب الجاهلى إلى يومنا هذا، فجاهلية مابعد البعثة أشد وأحد وأخبث من جاهلية ماقبل البعثة التى لم ترهب المؤمنين. وإنما بدأ إرهاب الجاهليين المؤمنين بما فعلته قريش فى شعاب مكة بعمار بن ياسر وبلال بن رباح وغيرهما. ومايزال إرهاب الجاهليين بالمؤمنين مستمرا إلى يومنا. وقد نالنى منه نصيب.

هوامش الفصل الثاني

(١) نعتمد على لسان العرب لابن منظور حـ ١٣ (ج هـ ل)، وأساس البلاغة للزمخشرى، والمفردات للراغب الأصفهانى بتصرف.

(٢) الحجرات آية ١٤.

(٣) انظر تفصيل ذلك فى الكشاف للزمخشرى ٣ / ٥٧٠.

(٤) البقرة ٢٧٣.

(٥) البقرة ٦٧.

(٦) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصبهانى (ج هـ ل).

(٧) الصف آية ٢ ، ٣.

(٨) أصول الشعر العربى د.س .مرجوليوث نشرت فى يوليو ١٩٢٥ بمجلة الجمعية الملكية الآسيوية ترجمها د.يحيى الجبورى ونشرها فى بغداد ١٩٧٧.

(٩) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى د. محمد مصطفى هداره ط ١ – ١٩٨١ ص ٢١٤ وما بعدها.

(١٠) آل عمران ١٥٤.

(١١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى ١/ ٤٧٢ بتصرف.

(١٢) المائدة آية ٥٠.

(١٣) انظر تمام المنافرة بينهما فى الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى. ط دار الكتب المصرية ١٦/ ٢٨٣ – ٢٨٤.

(١٤) أحدث الرجل، وأحدثت المرأة زنيا. على سبيل الكناية. لسان العـــرب ح د ث.

(١٥) السيرة النبوية لابن هشام ط مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٩٣٦ ٤/٥٩-٦٠.

(١٦) كتاب الأصنام لأبى المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى ط دار الكتب المصرية ١٩٢٤ ص ٣١.

(١٧) الجاثية آية ٢٣.

(١٨) الأحزاب آية ٣٣.

(١٩) الكشاف للزمخشرى ٣/٢٦٠.

(٢٠) الفتح آية ٢٦.

(٢١) الكشاف للزمخشرى ٣/٢٤٩.

(٢٢) انظر فى العلاقة بين المجوسية والزندقة (اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى د.محمد مصطفى هدارة ص ٢٢٣ وما بعدها.

(٢٣) المستطرف فى كل فن مستظرف - شهاب الدين محمد بن أحمد الابشيهى ط بيروت ١٩٨٨-٢/٨٢-٨٣.

(٢٤) الكامل فى اللغة والأدب للمبرد ط التقدم ١٣٢٤ هـ ٢/٢٥٢.

(٢٥) الممتحنة آية ١٢.

(٢٦) عيار الشعر لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوى ط ٣-منشأة المعارف ص ٧٤.

(٢٧) البيان والتبيين للجاحظ ١/٢٩٠.

(٢٨) نفسه ١/٣٥١.

(٢٩) نفسه ٢/٢٧٢.

(٣٠) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ط دار الكتب المصرية ١٦/٢٨٣-٢٩٦.

(٣١) الإجازة: أن يجيز له شيخه الرواية عنه.

(٣٢) الوجادة: أن ينقل عن كتاب عالم.

(٣٣) الكنة: امرأة الابن أو الأخ.

(٣٤) القروم: السادة.

(٣٥) اللقاح: ككتاب، الإبل.

(٣٦) أى عند الغارة على الأعداء.

(٣٧) الشياح: القحط، يريد السنة المجدبة.

(٣٨) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لأحمد بن على بن حجر العسقلانى ١/٦٠.

(٣٩) البينة آية ٥.

(٤٠) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ١/٦٤.

(٤١) العلق الآيات ١-٥.

(٤٢) انظر باب (بدء الوحى) من فتح البارى بشرح صحيح البخارى لأحمد بن على بن حجر العسقلانى ط السلفية بمصر.

(٤٣) فاطر آية ٢٨.

(٤٥) حياة محمد د.محمد حسين هيكل ط ١٥ دار المعارف بمصر ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٤٦) مريم آية ٩٧، قال الراغب فى المفردات (ل د د): الألد، الخصيم الشديد التأبى وجمعه لد. وأصل الألد الشديد اللدد أى صفحة العنق وذلك إذا لم يمكن صرفه عما يريده.

(٤٧) التوبة آية ٦٧.

(٤٨) حجج النبوة للجاحظ ضمن رسائل الجاحظ جمعها ونشرها حسن الندوبى ط الرحمانية بمصر ١٩٣٣ ص ١٣٧.

(٤٩) التوبة آية ٧١.

(٥٠) وازن بين حوادث سنة ١١هـ فى تاريخ الرسل والملوك للطبرى وغزوة صدام حسين ومؤيديه للكويت. والموازنة توقفك على حقائق بالغة الخطر.

(٥١) سورة (الكافرون) تدلك على اصرار المنافقين وتربصهم، وفعل الأمر المبدوءة به السورة زمنه المستقبل، والمعنى قل يامحمد، ويامن تتبع شريعة محمد فيما يجد من الزمان. والبلاغيون يقولون العبرة ليست بخصوص السبب، وإنما العبرة بعموم اللفظ.

(٥٢) المائدة ٥١.

(٥٣) المفردات فى غريب القرآن - للراغب الأصبهانى (و ل ى).

(٥٤) ننقل إليك تعريف الامام أحمد بن على بن حجر العسقلانى فى كتابه فتح البارى بشرح صحيح البخارى ط السلفية ١٢/٢٩٧.